

تاريخ الإرسال: 2018-02-24

تاريخ القبول: 2018-05-19

المثل الشعبي من محلية الوضع إلى عالمية الاستعمال

د/ بوبكر الصديق صابري

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعرييج

الملخص:

يُعدّ المثل الشعبي أيقونة لمعرفة خاصة بالعالم، وهو التراث اللامادي للشعوب يلخص تجربة حياتية فردية، لكن في الوقت ذاته يرسم هوية الجماعة الاجتماعية التي أنشأته أول مرة. وفي انتقال المثل من مكان إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى يكتسب العالمية؛ عالمية الدلالة وعالمية الهدف، وإن اختلفت علامات التعبير عنه باختلاف اللغات اليومية التي تتداوله.

الكلمات المفتاحية: المثل؛ الأدب الشعبي؛ الهوية؛ التواصل.

Abstract:

The popular proverb is considered the caudle of special Knowledge in the world. It is the peoples no-materialist patrimony, It summarizes the individual life experience, but at the same time, proverb draws the identity of the social group which founded it the first time. Moving from place to another and from civilization to another, the proverb acquires globalization (world) in meaning (significance) and in objectif, although there is differences (divergences) in expression signs and in daily languages that use it.

Keywords: Proverb ; popular littérature ; Identity ; communication.

يعدّ الأدب الشعبي موروثا تتناقله الأجيال، ولما كان منتجاً مخيلاً جماعية أهّل ليكون حبرا به يُرسم تاريخ الشعوب، لذلك استعصى على الزمن ولم يطله الفناء والنسيان، بل حظي بعرفان، ولا سيما أنّه يمثل مرتبة من مراتب الوعي الجماعي؛ ووعي بالذات، ووعي بالمحيط، وعلى الرغم من كونه مجسداً بلغة التداول اليومي إلا أنّ اللّمسة الفنية التي تميزه، والمعاني الجليلة التي يستوعبها، جعلت منه أيقونة لمعرفة خاصة بالعالم، والقيم، والمُثل الخالدة في وجدان الجماعة التي أنتجت، والفئة من المهتمين المتأخرين فُرأدى ومجتمعين. وكما هو متداول عند المختصين فإنّ الأدب الشعبي يظم أشكالاً تعبيرية مختلفة باختلاف الهيئة التي يتمظهر عليها هذا النوع من الأدب شكلاً ومضموناً؛ فمنها ما يكون قصيراً، ومنها ما يتمادى في الطول، ومنها المرتبط بالواقع، ومنها القائم على الأسطورة، فتعدّدت الأشكال وتوّعت، وتحدّدت الأنواع؛ فتقرّد المثل عن اللّغز، والنكتة عن الحكمة، وكلّها مجتمعة وغيرها أشكال أدبية مولودة من رحم واحد هو الأدب الشعبي الناقل الوفي لحضارة الشعوب، والحافظ لثقافتها، باعتبارها أنساقاً طبيعية متفرّدة بامتياز.

يعتبر المثل الشعبي شكلاً من أشكال الأدب الشعبي وتراثاً لا مادياً للشعوب، تعيد التفاعلات الاجتماعية بعثه وتحيينه بحسب وظيفته التي تملئها السياقات التي تستدعيه، وهذا ما ذهب إليه العالم الألماني (فريدريك زايلر) في كتابه (علم الأمثال الألمانية) نقلاً عن نبيلة إبراهيم أنّ المثل يمتاز بخصائص أربعة هي أنه: ((1- ذو طابع شعبي 2- ذو طابع تعليمي 3- ذو شكل أدبي مكتمل 4- يسمو عن كلام الناس بالرغم من أنّه يعيش في أفواه الناس))⁽¹⁾ وهو بذلك ينتقل من منتج نوعي يلخّص تجربة حياتية فردية داخل مجموعة اجتماعية متميزة، ليكون زادا معرفياً ملبياً حاجة مستعمليه التربوية، في قالب أدبي تحكمه مقاييس أدبية مكتملة يطمئن إليها المنتج ويستحسنها المتلقي

وبالرغم من كونه يرتسم على أفواه قائله باللّغة اليوميّة، لكن ليست لغة عاديّة، وهذا ما ذهب إليه يوسف نسيب حين أشار إلى المعالم البارزة المميّزة للمثل القبائلي، وقاسمته الرأي في ذلك الأستاذة تسعديت ياسين، ولا سيّما الغاية التّربوية من وجوده، حسب المواضع التي شحذتها الجماعة⁽²⁾، بذلك ينتصب المثل عامل رسم هويّة الجماعة الاجتماعية، ومعلّمًا ثقافيا يُحدّد انتماءها الحضاري وفق الإملاءات التّاريخية والمزايا الاجتماعية بكل تفرعاتها، ومستوى تفاعلاتها، مع المجالات الطبيعيّة المميّزة لكل مجتمع على حده، ولعلّ هذا ما يقيم للذاكرة الشّعبيّة شأنًا قيمًا لما تضمّنه من استمراريّة الإحساس بالانتماء، والتّمايز عن الآخر، والإسهام في احترام القوانين الطبيعيّة في مجال التّوّع الثقافي، فالمثل الشعبي يحيل ولاشك على وضعيات تكتنز قيمًا، واعتقادات، وممارسات اجتماعية. قد يكون المثل فرديا من حيث الإنتاج، لكن الأوكّد أن يكون مستمدا من التفكير الجمعي؛ من خلال تلك الممارسات التي تشكل طابع حياة، ونمط عيش لا يستطيع الفرد أن يحيد عنه، لذا وإن كان المثل إبداعا فرديا، لكن في حدود الممارسات الاجتماعية، والتّمثّلات الجماعية، وهذا ما أهله ليكون أدبا يصدره الشّعب، ينقل به خصائص من جوانب حياته اليومية، من خلال مواقف الأفراد والجماعات حيال تفاصيل الحياة المتشعبة، مبرزًا بها عاداته ونمط تفكيره، ولا يخفى على أهل الاختصاص أنّ العلاقة بين الثقافة والهويّة هي علاقة تلاحم، والمثل الشعبي هو ترجمان لتلك الثقافة، والمميّز لتلك الهويّة.

واعتبار المثل الشعبي من رواسب الذاكرة الشّعبيّة وُجِدَت له آليات وظيفية لانتشاره، وهذا ما أهله ليكون أكثر الأشكال التّعبيرية شيوعا، وبهذه المزايا نال اهتمام المختصين في علوم شتى؛ من علماء الاجتماع، وعلماء النفس، وعلماء الأنثروبولوجيا، والأدباء والنقاد، جاعلين من المثل مُدَوّنة قيمة لبحوثهم

باعتبارها تعكس بصدق قيماً فكرية، وحضارية مميزة لشعب من الشعوب، ومحيطة بجوانب حياته المختلفة، وهو على حدّ تعبير مالفينوفسكي تقرير لواقع حياتي لمجموعة اجتماعية معينة⁽³⁾، ولا سيما أنّها مُجسّدة لتفاصيل الثقافة والهويّة، ناقلة لطبائع النّاس وطرائق تفكيرهم، ولنظرتهم للحياة، وفق معتقدات متوارثة وأخرى مستحدثة، تختصر مواقفهم حيال تفاصيل الحياة التي يعيشونها.

ولمّا كان المثل آليّة نقل تجارب الأقبام السّابقة بمسحة جماليّة، ولمسة فنيّة هادفة، غرضها ترسيخ المثل مبنى ومعنى في ذهن المتلقّي، فيمكن اعتبار المثل رسالة لغوية بين أفراد الجيل الواحد وحتى بين الأجيال المتعاقبة، تكتته أهدافا غير محدودة، وإن كان المعنى محدودا، وهذا ما يُؤهل المثل ليكون معرفة تواصلية بامتياز. من هذا الباب يمكن الوقوف وقفة متأنية عند عتبة النّهاية المعرفيّة المُجسّدة للثقافة والهويّة؛ الثقافة والهويّة التي ينقلها المثل الشعبي ترتسم ليس بتتابع المسار الذي يقطعه هذا الأخير بين الأجيال المتماثلة الهويّة فحسب، بل بتتابع المسار الذي يرسمه في انتقاله بين الأمم؛ لأنّ الأمثال الشعبيّة لا تقيدها الحدود السياسيّة، ولا تُلجمها الاختلافات الاجتماعيّة، ولا تُحبسها المقاييس اللّغوية، فما يُفك أسرها ويُسرّع انتقالها بين الأمم المختلفة الثقافة والهويّة هو المعنى وقوّته؛ فقوة المعنى تجعل المثل الشعبي مسافرا من جغرافيا إلى أخرى دون عناء، ومتجوّلا من لغة إلى أخرى دون حياء، ولعل للظاهرة تلك عوامل وجود منها: الهجرات المتنوعة، التّبادل التّجاري، التّرجمات العلميّة، البحوث العلميّة المتخصّصة، الإعلام والاتصال وتطور آلياتهما، كلّها مجتمعة لها دور في انتقال المثل من لغة إلى أخرى، وتراحاله من ثقافة إلى أخرى. ولعل العامل الأكثر تأهيلا في إنجاح المثل للعيش في البيئة البديلة الجديدة عن تلك التي وُجد فيها أوّل مرة هو حاجة تعبير المجتمعات الجديدة التي إليها رَحَل، وبها حلّ وأقام، لأنّ تلبية الحاجة لا تكون لو لم يكن التّأثير

منتصبا في مواقف استدعت توظيف المثل وعرضه للتداول المكتف، فتجسّد بلغات مختلفة لمجتمعات متباينة، وما ذاك إلا تأكيد على تشابه المجتمعات المختلفة اللّغة في بعض دقائق حياتها، فهذه القواسم المشتركة مؤشر واضح على إنسانيّة الإنسان، ومن ثمة تجسّدت عالمية المثل بعد أن رأى النور في رحم المحليّة بكلّ مميزاتا الجغرافية واللّغوية والثقافية؛ فالأمل والألم لا جنسية لهما بها يتميزان، والحبّ والبغضاء لا هويّة لهما بها يتقرّدان، بل عالم الأحاسيس جنسيّته عالميّة، وهويته مشتركة بين البشر، وفي هذا كانت بعض الأمثال وما أكثرها! عنصرا فاعلا لموروث عالمي مشترك بين المجتمعات المتباينة، فانصببت ميزة فارقة بينه وبين الأجناس الأدبية التي تقاربه في الشكل الأدبي كالألغاز مثلا، باعتبارها تنزع إلى المحليّة أكثر منها إلى العالمية. فكم من مقول مُوظّفٍ للألغاز يتداول في أحاديثه أمثالا صينية بلغة عربية، وكم من متحدّثٍ بارع يزيّن كلامه بأمثال ذات أصول بوذية وإفريقية وحتى فارسيّة، وإن كان ينتمي إلى مجتمع لا يمتُّ إلى لغة المنشأ الأصيل للمثل بأيّة صلة، وفي أي حال من الأحوال؛ بمعنى أنّ استحسان المعنى عامل حياةٍ يحقق الوجود لهذا المثل ولو بالتبّي. وبمرور الزمن وبالتداول المستمر له يفوز بمكانة في النسيج العام للأمثال المحليّة. ولا مجال للحديث عن العوامل الفاعلة في انتشاره، وقوّة تداوله بين أفراد المجتمع الواحد حيث وجوده الأصيل، ولا سيّما التّركيز على بنائه الشكلي؛ لأنّ جمالية البنية اللّغويّة تقعد تأثيرها عند انتقال المثل من لغة المنشأ إلى لغة أخرى؛ فالبريق اللّغوي الذي ميّزه في لغة المنشأ لا ينتقل معه عند هجرته، والمسحة الفنيّة لا أثر لها في المتلقي الأجنبي مقارنة بآبن اللّغة، فالشّيء الوحيد الذي يأخذه معه المثل في رحلة الانتقال هذه هو التّأثير بالمعنى وقوّته، والذي يشكّل حافظا نوعيا يجعل منه ضيفا مَرَحَبًا به، يرتقي به ليكون ربّ بيت دون منافس ولو كان البيت غير بيته، وورثا شرعيّا دون شريك ولو كان الشريك ينازعه الملكية؛ ملكية الأرض والدلالة.

وهذه مجموعة من الأمثال يكثر تداولها في مجتمعات مختلفة، تنوّعت اللغة التي وردت بها، وإن كان معناها متقاربا، وقد يتطابق في أحيين كثيرة مع أمثال أخرى من لغة أخرى، من ذلك مايلي:

-1

المقابل له باللغة الأمازيغية	المثل باللغة العربية
((THUKRA NESBAH GHAS IRBAH))	((لبكر لحاجتو قضاها))
((WIN IHADRAN D WIN IFAHMEN AMIN IGTHATEN TAAM IDAHNEN))	((حدث الفاهم تستراح (
ASGHAR MAHQUREN IG- (SDARGHILEN))	((العود ألي تحقرو يعميك))
((ASA FELLI AZEKA FELLAH))	((يوم ليك ويوم عليك))

-2

المقابل له باللغة الإنجليزية	المثل باللغة العربية
((WHEN THE CAT IS A WAY THE MICE WILL PLAY))	((كي يغيبو لقطوط تلعب الفيران))
((LOOK BEFOR YOUR LEAP))	((ميز قبل ما تتكز))
((TO KILL TWO BIRDS WITH ONE STONE))	((ضرب عصفورين بحجر واحد))
((NO BEES NO HONEY NO WORK NO MONEY))	((أخدم بفرنك أو حاسب البطل))

((OUT OF SIGHT OUT OF HEART))	((بعيد على العين بعيد على القلب))
---------------------------------	-------------------------------------

-3

المقابل له باللغة الفرنسية	المثل باللغة العربية
((IL YA PA DE FUMEE SANS FEUT))	((مكانش دخان بلا نار))
((LES CORDONIER SONT LES PLUS MALES CHAUSSE))	((طباخ شات مرقة))
((TOUS LES CHEMINS MAINENT A ROME))	((كل الطرق تؤدي إلى روما))
((LES MURES ONT DES OREILLES))	((الحيط أبوننيه))
((THE CAT HAS SEVEN LIVES))	((كالقط بسبع أرواح))

-4

المقابل له باللغة الإنجليزية	المقابل له باللغة الفرنسية	المثل باللغة العربية
((LIKE FATHER LIKE SOON))	((TELL PERE TELL FILS))	1 ((هذا الشبل من ذاك الأسد)). 2- ((من شابه أباه فما ظلم)).

فالحضور المتعدّد للمثل في اللّغات المختلفة بتعابير مختلفة، هو مؤشّر على أنّ المثل في بنيته اللغوية النهائية يتزيا بزّي جديد عند كل استعمال جديد في لغة جديدة، لكن الجوهر واحد، والذي يؤكّده هو التوافق في ما يدلّ عليه المثل كقاسم مشترك بين اللّغات، أما قوّة معناه فتبنيها العناصر⁽⁴⁾ المحقّقة لها، والتي تمكنه من النفاذ إلى الحالات النفسية الكامنة وراء السلوك، سواء في إنتاج المثل أم استدعائه مرة أخرى في مواقف مشابهة، وفي الوقت ذاته هي عناصر فاعلة مكوّنة للمثل في لغة المنشأ.

-5

المقابل له باللّغة الاسبانية ⁽⁵⁾	المثل باللّغة العربيّة
((QUIN MAS TIENE MAS QUERE))	((ما يملا كرش بني آدم غير التراب))
((GUARDAR SILENCIO ES MEJOR QUE HABLAR))	((أحفظ الميم تحفظك))
((CON LOS ANOS VIENE LA EXPERIENCIA))	((مع الزمان تأتي الخبرة))
((AQUIEN MADRUGA DIOS LE AYUDA))	((ربي في عون ألي ينوظ بكري))
((QUIEN MUCHO HABLA MUCHO FALTA))	((ألي كثر كلامو كثر زلاتو))
((EL QUE NO TRABAJ QUE NO COMA))	((ألي ما يخدم ما يأكل))
((ENTIENDE PRIMERO Y HABLA ULTIMO))	((أسمع قبل ما تتكلم))

<p>((DIOS DA HAVAS QUIEN NO TIENE QUIJADAS))</p>	<p>((ربي إمد الفول ألي معندوش ((السنين))</p>
--	--

ومما تقدم يرتقي المثل الشعبي ليكون رأسمال جمعي تكسبه الجماعة، وتستثمره لتحافظ على هويتها ومزايا ثقافتها، تتوارثه الأجيال كابر عن كابر، وتتناقله الألسنة فتُحَقِّق له الخلود بعد أن ضمنت له الوجود، في جغرافيا لم تكن موطنه، وسطّرت له حياة في ثقافة أجنبية عن منشئه الأوّل، لكن إنسانيّة الإنسان وما تمتاز به من قواسم مشتركة بين البشر تجعل بعض الأمثال لا تتنازع الانتماء بقدر ما تتدافع للاقتناء، وما يهّمها سوى أنّها خلاصة تجربة إنسان يرفض النسيان، تحيا معانيها دائما في الأذهان وإن لم ينطقها اللسان، وإن نطقها بألسنة ليس فيها بيان، فالأهمّ عندها أنّها تعبير عن إنسانيّة الإنسان.

الهوامش:

- 1- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط3. القاهرة: دار غريب، ص175
- 2- Yousef Nacib, proverbes et dicton kabyles, ed maison des livres. p2.
-Tassadit Yacine ((la sagesse des proverbes kabyles)) in awal. C.E.B n17. 1998, ed M.S.U, paris, p112.
- 3 - Bronislaw Malinowski, Magie, science et religion : 1962, ed seuil PARIS, p201.
- 4- التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، د.ط. الجزائر: 1990، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 159.
- 5- هشام ركيبي، مفتاح اللغة الإسبانية، د.ط. الجزائر: 1996، دار الأمة للطباعة والترجمة.